تاريخ مصر ونهضتها القومية

للأستاذ عبد المجيد نافع

في نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين أثارت طائفة من فلاسفة الغرب وعلمائه وكتابه ، حملة شعواء ظالمة على التاريخ كعلم من العلوم الإنسانية ، وبلغت تلك الحملة أشدها حين طغت موجة العلوم العملية على العلوم النظرية ، وجرف تيار الروح المادي كافة المثل العليا التي تغنت بها الإنسانية طوال السنين أو كاد ، وأسرف بعض الفلاسفة في توجيه النقد فنادى بأن التاريخ لا يعدو أن يكون « مجموعة أكاذيب » لا ينبغي للشعوب أن تشغل أذهانها بها ، ولا يحل في شريعة التربية الوطنية أن نسمم عقول النشء بحشوها في ثناياها؛ وأبى بعض أولئك الفلاسفة أن يسمو بالتاريخ إلى مرتبة العلم الجدير باسم علم ، إذ لم تكن له المبادئ الثابتة والمقاييس والضوابط والحقائق التي تنطوي عليها علوم الرياضة والهندسة والفلك وما إليها من العلوم المضبوطة، وإن من ضياع الوقت الضرب في مجاهل التاريخ بدل الإلمام بالكيمياء والميكانيكا والجيولوجيا والبيولوجيا والفزيولوجيا وغيرها من العلوم العملية . وذهب بعضهم إلى حد القول بأن الذي جنى على الحضارة الإنسانية شر الجنايات إنما هو التعلق بالخيالات ، واطراح الحقائق العملية ظهرياً ، ونبى أحدهم على التربية في عصره العناية بالنظريات ، والتنكر للحقائق العملية إلى حد أن يجهل الناشئ جهلاً مطبقاً وظائف أعضاء جسمه ، على حين أنه يلقى عن ظهر غيب تاريخ ميلاد الملوك ووفياتهم ، وحروبهم ، ولو لم يكن لأولئك الملوك أثر بارز في التاريخ ، ولو لم تغير معاركهم الحربية مجراه في كثير أو قليل ، كأنما التاريخ بات ثبتاً بمواليد الملوك ووفياتهم ، وقائمة حمراء بالمعارك الدموية ! وعلى الجملة فقد قام أولئك العلماء ينشدون «الإنسان الآلي» ، ويضلون عن الإنسان المركب من جسم وروح وعقل !

كان يمكن أن ترجح وجهة نظر دعاة المذهب المادي لو أن التربية إنما تعنى بالجسم والعقل دون الروح ، ولكن التربية الحقة في ضوء العلوم النفسية ، وعلى هدى التجارب التي تمليها نهضات الشعوب ، ينبغي لها أن تعنى بالجسم ثم بالروح ثم بالعقل، بحيث يحصل التوازن فلا تطغى قوة على أخرى . والإنسان تسوقه العاطفة أكثر مما يسوقه العقل . والعواطف الملتهبة الجياشة التي تبلغ حرارة اليقين وغليان الإيمان ، وترتفع إلى الرضا بالاستشهاد في سبيل ما يعتقد المجاهدون أنه الحق ، هي التي غيرت وتغير وجه التاريخ ، لا برودة العقل والبحث العلمي المجرد . والأمم في جريها وراء تحقيق المثل العليا تشعر في أعماق نفسها بقوة تحفزها للنهضة والتقدم إلى الأمام . وما كان لحفنة من العرب أن يخرجوا من جزيرتهم الجرداء القاحلة غير مزودين بعدة أو عدد ، أن يهدموا امبراطوريتي الرومان والفرس ويقيموا على أنقاضهما الامبراطورية العربية الضخمة ، وينشئوا الحضارة الإسلامية ، وهي أبقى على الزمن الباقي من الزمن ، لولا الإيمان الذي يشعر قلوبهم ، واليقين الذي يدفعهم إلى تحقيق مثلهم الأعلى .

وفي الحروب أفلا تراهم يتحدثون عن الروح المعنوية ، وأنها هي التي ترجح كفة النصر . ثم ألا ترى أن الدعاية القوية هي التي تقود خطوات الشعوب . ولعله لا يكون من الإسراف أن نحمل طائفة من مؤرخي الألمان وفلاسفتهم وعلمائهم النصيب الأكبر في تبعات الدماء التي سالت والأرواح التي أزهقت في حربين لم تكد تخبو نار إحداهما حتى تأججت نيران الأخرى أشد ما تكون ضراماً في فترة واحد وعشرين عاماً ، ولا يعلم إلا الله ماذا تلتهم ومتى تخمد ! ومن ذا يستطيع أن ينكر أن تريتشكه ونيتشه يساهمان بنصيب كبير في الروح الحربية الروسية ، وأن عقول وأقلام راتينا وكيزرلنج وتوماس مان وشبنجلر ومولر فان دن بروك وفيدر وروزنبرج وغيرهم من غلاة المذاهب الفلسفية المتطرفة هي التي صاغت ألمانيا النازية التي تتحدى اليوم العالم بمن فيه وما فيه ! لقد نفخ هؤلاء وأولئك في روح الألمان أنهم من طينة غير طينة كثير من الأمم ، وأنهم خلقوا للتسلط والسيادة ، وأن الحرب إنما هي صدام بين إرادتين ، وإنما يعقد النصر بلواء الأقوى فيهما وأنه لا بد لألمانيا من أن تصفي حسابها مع الغرب ، إن لم يكن اليوم فغداً ، ليتسع لها المجال الحيوي ، ولتأخذ مكانها في الشمس ،

ولتأخذ مكانها من سيادة العالم ، وتطالع الدنيا بنظام جديد ينهض على القوة والرق بدل النظام الذى كان يقوم على الضعف والانحلال!

إنما تنكر بعض الفلاسفة والعلماء للتاريخ وأكبروا أن يرتفعوا به إلى مرتبة العلم ، لأنه كان قائماً على مجرد سرد الوقائع وذكر الأرقام ، وليس هذا من التاريخ فى شىء . فإذا اصطبغ بصبغة الأدب فهو أدنى إلى القصص التاريخي منه إلى التاريخ الحق . إنما المؤرخ ، الجدير بهذا اللقب ، هو الذى يعتبر المجتمع الإنسانى مثل الجسم الإنسانى يجوز على أحدهما مايجوز على الآخر من عوامل التطور ، ودواعى الصحة والمرض ، والقوة والضعف ؛ ويساير الأمة منذ نشأتها ، ويدرس البيئة وما يحيط بها من عوامل مؤثرة ، ويحلل المؤثرات التى تنتاب الشعوب ، ويعلل الظواهر الاجتماعية ، ويلقى شيئاً من الضوء على ما أبهم فى حياة الأمم ويضىء الجوانب المظلمة فى التاريخ الإنسانى ، ويجلو الغامض فى المسائل التاريخية التى أحدثت الانقلابات أو جرت إلى التحول والانتقال ، ويطالعنا كيف ارتفعت بعض الأمم إلى الذروة ، ثم هوت إلى الحضيض ، وعلى الجملة يكون فى تحليله وتعليله مثل العالم فى معمله ، والفلكى فى مرصده

توقفت على دراسة كتاب « مصر القديمة » للعالم الأثرى الكبير الدكتور سليم بك حسن ، فأوحى إلى فيما أوحى بتلك الخواطر جميعاً . والحق أنه جعل من التاريخ المصرى القديم مادة حية تغذى نهضتنا الحديثة الغذاء الروحى والعلمى والعقلى الصالح ، ووصل ما انقطع بين مصر المصرية ومصر القديمة

لقد ظل تاريخنا القديم السنين الطوال حرماً مقدساً لا ينشاه إلا الغربيون ، وكنا إذا شئنا أن نجيل الطرف فى مجدنا التليد عمدنا إلى مصنفات الفرنج نقلب صفحاتها ، ومن لم يكن ملماً بلغة أجنبية ضرب بينه وبين تاريخ بلاده حجاب ، وكنا إذا أردنا أن نرتوى من عظات الماضى نهلنا من موارد الإنجليز والفرنسيين والأمريكان والألمان ، فأكبر عالمنا الجليل أن تظل تلك الوصمة غالقة بنهضتنا ، وهذه الشائبة تشوب صحيفة ثقافتنا ، وذلك النقص يعتور حضارتنا ، فأقبل يستلهم الآثار والنقوش ، ويستهدى الحاجر والمقابر ، ويبحث وينقب ، ويبوب ويرتب ، ويتابع ويراجع ما كتبه الفرنج وغير الفرنج ، ويساير البيئة المصرية منذ نشأتها ويرقب تطورها وتحولها ، ويراقب العوامل التى أثرت فيها والملابسات التى أحاطت بها ، ويرتب النتائج على المقدمات ، ويفصل بين أصدق الآراء فى معترك الآراء ، ويجلو الغامض والمبهم ، ويمزج علم التاريخ بعلم الاجتماع ، ويقدم من مجد الماضى مادة لتغذية الوطنية المصرية المتوثبة ، ويكشف عن مواطن الأدواء التى انحدرت إلينا من الماضى السحيق ، ويضع مشرطه على مكمن العلة فى غير تهريج علمى ، ولا نعرة وطنية كاذبة ، بل فى تواضع العلماء ، فوفق إلى إبراز التاريخ المصرى فى حلة قشيبة يجدر بكل من شرب ماء النيل وأظلته سماء مصر أن يرجع البصر فى ذلك التاريخ الحى كرتين

لقد ساهم العالم الفرنسى الكبير شمبليون بقسط كبير فى خدمة قضية المدنية والعلم حين كشف فن الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على حجر رشيد ؛ وما أحسبنى مسرفاً أو مغالياً حين أقرر أن الدكتور سليم حسن قد خدم النهضة المصرية بمؤلفه الجديدة أجل الخدمات

ولعلى لا أعد محلقاً فى أجواء الخيال إذ أجاهر بأن لفنجستون وستانلى قد كشفا عن مجاهل أفريقيا فخدما العلم والحضارة، وأن عالمنا المصرى قد كشف عن مجاهل التاريخ المصرى القديم فتوج النهضة الحديثة بأبهى التيجان وأغلاها

لم يكن التاريخ المصرى غامضاً فحسب، بل كان لفرط تشابهه يبعث السأم فى النفوس ، فانصرف عنه الشبان الذين يؤثرون تغذية الروح على تغذية العقل . ولكن عالمنا قد نفخ فيه من روحه وأسبغ عليه من فيض حماسه ، وأضفى عليه من وافر إخلاصه ما جعل النفوس التى على ظمأ تتشربه تشرباً

على أنه قد عف عن التهويش العلمى ، وتورع عن أن يجعل كتابه مصطبغاً بالصبغة الأدبية البحتة ليكون سائغاً للنفوس ، بل جعله بين ذلك قواماً فى أسلوب علمى هادئ وبحث أدبى رصين

إلى عهد غير بعيد كانت معرفة التاريخ المصرى القديم تعتبر ضرباً من ضروب الترف العقلى ولوناً من ألوان الزينة العلمية ، ولكن اليوم ونحن أمة تبتغى أن تأخذ مكانها بين الأمم الناهضة وتطمح لأن تساهم بنصيب فى خدمة قضية الحضارة ، ينبغى لنا أن نعد الإلمام بتاريخ وطننا ضرورة قومية

الكبرياء رذيلة الأفراد ، ولكن الكبرياء القومى فضيلة اجتماعية للشعوب ، والكبرياء القومى والعزة الوطنية لا يتوافران لشعب إلا إذا شعر شعوراً صادقاً وعميقاً بمكانة وطنه فى الماضى والحاضر ، وإذن فليس يكفى القومية المصرية أن تشهد نهضة حقة فى الحاضر ، وإنما ينبغى لها أن تعرف أن الأمة التى بلغت ذروة الحضارة فى الماضى البعيد بينما كانت أمم الغرب لا تزال تأوى إلى المناور والكهوف لهى أمة خليقة بأن تكون فى طليعة الأمم المتحضرة

ما أحسب الذين يدينون بمبدأ العنصرية القائل بجعل الأجناس بعضها فوق بعض درجات إلا مريدين به أن يكون حافزاً لشعوبهم لتحقيق غاية التسلط والسيادة ، ولنا أن نسأل : إذا كان المصرى قد بلغ ذاك الشأو من الحضارة فى الماضى فما الذى يقعد به عن أن يكون فى مقدمة المتحضرين اليوم

ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن المدنيات نشأت أول ما نشأت فى الأمم التى تتوافر فيها وسائل العيش وتسهل ، فى الأمم التى لا تكون الطبيعة فيها قاسية لا تعرف الرحمة ، ولهذه الاعتبارات نشأت المدنيات فى مصر وآشور والهند والصين ، فلما اشتد ساعد الإنسان فوق الأرض ، واستطاع مكافحة عوامل الطبيعة ومغالبتها انتقل مركز المدنية . ولكن الرد على تلك النظرية هين ميسر ، فالذين بنوا الأهرام ونحتوا أبا الهول فى الصخر ، وضربوا فى العلوم بسهم وافر ، وأنشأوا النظم على اختلاف أنواعها ، خليق بأبنائهم أن يأتوا فى هذا العصر بالمعجزات

لقد كانت مصر القديمة مهبط وحى الأديان جميعاً . فالله ، والروح ، والبعث ، والثواب ، والعقاب ، كل أولئك قد اهتدى إليه آباؤنا المصريون . وأين نبتت فكرة الخلود إلا فى الأرض المصرية ؟ ولعله ليس من العجيب أن يؤلهوا ملوكهم ، فعبادة البطولة كانت ولا تزال متأصلة فى أعماق النفس البشرية

كان لأجدادنا المصريين حكومة منظمة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معنى ، يوم كان الغربيون يهيمون على وجوههم فى الآجام ، ويسكنون المناور والكهوف ، وكانت إدارة مصالح الحكومة تسير على أحسن وجه ، وأكمل صورة ، يوم كان الأوربيون لا يدركون حتى مدلول تلك الكلمة ، وكانت لهم علوم وفنون ، يوم كان غيرهم يعيشون على الفطرة

وآمن المصريون القدماء بأن العدل أساس الملك ، فوضعوا التشريع المدنى والجنائى ، ونظموا الهيئات التى توزع العدالة بين الناس

وفطنوا إلى أن الثروة عنصر من عناصر قوة الأمم فاستغلوها على خير وجوه الاستغلال

وأدركوا أن عزة الشعوب ومنعتها فى قوة جيوشها التى تحمى استقلالها وتصد المغيرين عن كيانها ، وأن الحروب هى القانون القاسى الذى فرض على تلك الانسانية البائسة ، وأن السلام ليس إلا هدنة بين حربين ، وأن الجار المتوثب لا يكبح جماحه إلا السلاح ، أدرك المصريون كل أولئك فجيشوا الجيوش وغزوا البلاد وقلموا أظافر المعتدين

وضعوا نظاماً صالحاً للأسرة إذ آمنوا بأنها الأساس الذى يقوم عليه النظام الاجتماعى

وأحاطوا بكل عناصر المدنية ، فأوغلوا فى العلوم والفنون والآداب ، وما زالت آثارهم تنادى بالتقدم الذى بلغوه يوم كان العالم لا يزال يضرب فى ظلمات الجهالة

إذا كانت السياسة هى فن حكم الشعوب ، فلا مفدوحة لمن يطمح لحكم شعب أن يلم بعلم التاريخ عامة وتاريخه خاصة

وسط ضجيج الحرب عمل الدكتور سليم فى صمت ، فطالع الأمة بذاك الأثر الخالد ، فما أجدر المصريين أن يجعلوه مصباحاً يضىء لهم طريق المجد والمدنية .

عبد المنعم رافع

مدرس للغة التركية

الأستاذ أحمد حمدى قصاب أوغلو مؤلف كتاب دليل الحاج للرشد على المذاهب الأربعة

يعطى دروساً باللغة التركية بأسلوب سهل على الطريقة الحديثة والقديمة . وعنوانه مكتبة مراد لصاحبها عبد الرحمن أفندى مراد بشارع جوهر القائد (الدكة الجديدة سابقاً) سيدنا الحسين بمصر .